مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

فِي التَّسْلِيمِ لِلعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ

صُوْرَةُ الدُّنْيَا فِيْ كِتَابِ "نَهْجُ البَلَاغَةِ" دِرَاسَةً دَلَالِيَّةً بَلَاغِيَّةً - الخُطْبَةُ (١١٤) أُنْمُوْذَجًا

ريتا مالك عليّ [١]

١ جامعة تشرين / كُلِّيَّة الآداب / قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛
rittaali27@gmail.com
دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
١/ ٢/ ٢٠٢٤	٢٧/ ٢/ ٢٠٢٤	٣١/ ٣/ ٢٠٢٤

المجلد (١٧) العدد (٢٩)
رَمَضَان ١٤٤٥هـ-آذار ٢٠٢٤م

DOI:
10.55568/t.v17i29.43-65

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

يسعى البحث إلى تقصّي ملامح صورة الدنيا وتجلّياتها في كتاب نهج البلاغة للإمام عليّ بن أبي طالب ﵇، وذلك في إحدى أهمّ خطبه الشريفة في الكتاب، والتي تناولت الدنيا وأحوالها، وأحوال الإنسان فيها، وذمّ الإمام عليّ ﵇ لها، وحال الإنسان فيها، وعلاقته بها، وهو الكائن الأسمى في الوجود، والمخلوق لتنفيذ كلمة الله على الأرض، داعيةً في بعضها إلى الزهد في الدنيا الفانية وما فيها.

كما يقدّم البحث دراسة فنِّيَّة جماليَّة لنماذج من خطب البلاغة التي تناولت الدنيا وأحوالها، محاولاً إظهار الجوانب الجماليَّة فيها، وأثر ذلك في جلاء صورة الدنيا، وتذكير الإنسان بمسؤوليَّاته فيها.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الدنيا، الإنسان، الذمّ، المدح، أحوال.

Portrayal of Life in "Nahjul _Balagha"
(Rhetorical Semantic Study on Sermon 114 as an Example)

Ryta Malik Ali [1]

1 University of Tishreen / College of Arts / Department of Arabic, Syria;

rittaali27@gmail.com
PhD. in Arabic language/ Lecturer

Received: 1/2/2024 | Accepted: 27/2/2024 | Published: 31/3/2024

DOI: 10.55568/t.v17i29.43-65
Volume (**17**) Issue (**29**) Ramadan 1445 AH March 2024

Abstract:

This research aims to explore the features and manifestations of the image of 'the world' in the book "Nahj al-Balagha" by Imam Ali ibn Abi Talib (peace be upon him). This is done through an analysis of one of the most significant sermons in the book, which discusses the world, its conditions, and the state of humans within it. Imam Ali (peace be upon him) condemns the world in this sermon, describing the human condition and relationship with it, emphasizing that humans are the highest beings in existence, created to implement the word of Allah, the Almighty, on earth. The sermon also calls for asceticism in this transient world.

Additionally, this research presents an aesthetic and artistic study of selected sermons which address the world and its conditions. It aims to highlight the aesthetic aspects of these sermons and their impact on clarifying the image of the world, as well as reminding individuals of their responsibilities within it.

Keywords: balagha(eloquence), the world, human being, condemnation, praise, conditions

مقدَّمة

يعدّ كتاب "نهج البلاغة" من أهمِّ المصادر والمنابع الثرَّة التي تضمّنت كلّ ما يخصّ الإنسان وأحواله في الدنيا، وما يقع عليه من مسؤوليَّات فيها، وفي ماهيَّة وجوده، وحقيقة هذا الوجود، فهو الذي خلقه الله تعالى وأنزله الأرض، لا لمجرد خلقه فقط دون غاية، بل لمهام سامية، في ميدانِ امتحانٍ كبير اسمه "الدنيا".

ولا أحد كالإمام عليّ عليه السلام في خطبه وحكمته ووعظه لرفع شأن الإنسان في الحياة الدنيا، بغية نيل الحظِّ الأسمى والثواب في الآخرة، فالدنيا دار فناء، وليست إلّا مرحلة انتقاليَّة مؤقَّتة للدار الدائمة، وهي الآخرة.

وقد جاءت أهمِّيَّة الخطبة المتناولة في البحث من عنايته فيها بالتوجُّه للإنسان في الحياة الدنيا، ما له وما عليه، وكيف يجب أن يتعامل مع الحياة الدنيا بخيرها وشرِّها، وهو الذي ميَّزه الله تعالى عن باقي الكائنات بالعقل.

لذا جاءت أهمِّيَّة الخطب المتناولة في محاولتها الإعلاء من شأن الإنسان، وتوجيهه بكيفيَّة معرفة التعامل مع هذه الدنيا، وإدارة شؤون حياته فيها، كي يبقى على الطريق الصحيح الذي أراده الله تعالى له، من خلال تناول الخطبة (١١٤) ودراستها دراسة دلاليَّة بلاغيَّة نحويَّة، في ضوء قضيَّة التكثيف الدلاليّ فيها، ودراسة المستوى البلاغيّ البيانيّ فيها، كما بحث المستوى البديعيّ في ضوء ظاهرة من الظواهر البلاغيَّة المتجلِّية في الخطبة، وهي ظاهرة العكس والتبديل، في محاولة لتقديم دراسة جديدة عمدت للإحاطة بأهمِّ القضايا والظواهر البلاغيَّة والنحويَّة البارزة في الخطبة المدروسة وتميُّزها بها.

أهمِّيَّة البحث وأهدافه:

تكمن أهمِّيَّة البحث في بحثه إحدى القضايا المهمَّة التي ذكرها الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في كتاب نهج البلاغة، وهي قضيَّة الدنيا، وما لحكمة الإمام عليّ فيها من بلاغة وعِبرة موجَّهة للإنسان كي يدرك كيفيَّة التعامل معها والفوز منها بما جاء به مكلَّفاً لنيل ثواب الآخرة.

المنهج المتّبع في الدراسة:

يركّز البحث على موضوع "الدنيا" في كتاب "نهج البلاغة" باستعمال المنهج الوصفيّ التحليليّ، بوصفه المنهج الأقدر على الإجابة على التساؤلات المطروحة والقضايا المطروقة في الكتاب في الموضوع المبحوث، وإيلائها الأهمِّيَّة والعناية من وصفٍ وتحليل للعلاقات القائمة في الخطبة التي تحدَّث البحث بها.

أوَّلًا- الدنيا وأحوالها في كتاب "نهج البلاغة":

إنَّ المتتبّع لخطب الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بشكلٍ عام، وللخطبة المدروسة بشكلٍ خاصّ يجد فيها تراثاً ثرًّا قائماً على المعاني والدلالات العميقة المشحونة بالحكمة والمعرفة المعجزة في الدنيا وأحوالها، وما تفعله بالإنسان، وما قد تؤول إليه، وما تبديه وما تخفيه، كلّ ذلك في براعةٍ لغويَّة وبلاغيَّة منقطعة النظير تنمُّ عن شخصيَّة دينيَّة مميزة عرفها التاريخ لا تتكرّر.

في هذه الخطبة يعقد الإمام عليه السلام اللُّواء بين المتضاداتِ التي تلازم حياة الإنسان المؤمن في رحلته في الحياة، وتنظِّم العلاقة بينه وبين خالقه، وتدلّه على الطّريق الصّائب في كيفيَّة التعامل مع هذه الدنيا بكلِّ ما تحمله من مفاجآت وتناقضات، وتهدف إلى تمكينه من التكيُّف مع الحياة، والتأقلم معها في إطار تلك المبادئ والحِكَم المتضمّنة في الخطبة الشريفة.

وممَّا جاءَ في وصف الدنيا فيها:

١ - علاقة الدنيا والآخرة:

يقول عليه السلام: " **وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ**"[١].

لقد رصدت الخطبة الشريفة علاقة الدنيا بالآخرة، انطلاقاً من أهمِّيَّة توظيف الأضداد لإظهار حُسن الطرف الأهمّ المُراد، مقابل الطرف الآخر، فجاءت الخطبة الشريفة متضمِّنة لطبيعة العلاقة بين الدنيا والآخرة، والتي إمَّا أن تكون علاقة سلب، أو علاقة إيجاب، فتقول حكمته عليه السلام بنظرة الإنسان إلى الدنيا، هذه النظرة التي تتَّسم بالربحِ أو الخسارة، فالإنسان حين ينظر إلى الدنيا بأنَّها هي الهدف الأسمى، ويعمل عمله فيها لأجل نفسه فقط، ولأجل متاعه

١ صالح، صبحي. نهج البلاغة، ط٤ (القاهرة؛ بيروت: دار الكتاب المصري ؛ دار الكتاب اللبناني، ٢٠٠٤)، ١٦٩_ ١٧١.

فيها، حينئذٍ تكون علاقته فيها علاقة خسران، لأنَّه يضعها موضعاً أعلى من الآخرة وأهمّ، فيخسر ما كسبهُ في الدنيا وما يلزمه لنيل المكسب الأهمّ في الآخرة، وفي ذلك تكون علاقته بها علاقة سلبيَّة. أمّا حين يعلم أنَّ ما ينقصه في الدنيا هو من أجلِ ربحه في الآخرة التي هي خير وأبقى، حينها تكون علاقته بالدنيا علاقة صحيحة وسليمة من حيث التعاطي، وتكون حينها هذه العلاقة إيجابيَّة، فكم من إنسانٍ يظنُّ ربحه فيها ربحاً عظيماً، لكنَّه في حقيقة الأمر خسارة فادحة، لأنّها خسارة دنيويَّة، فالكسب الحقيقيّ هو الكسب في الآخرة.

كما يقول ﷺ: **"إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ"** [٣٢]:

في هذا القول يقصد الإمام عليّ ﷺ الحديث عن الخير والشرّ المطلقَين في الدنيا، فهو يريد شرّ الدنيا وخيرها، فإنَّ أعظمَ شرٍّ في الدنيا مُستحقَر في عقاب الله، وأعظمَ خير فيها مستحقر بالنسبة إلى ثواب الله في الآخرة، مؤكّداً ذلك بعِظَم أحوال الآخرة بالنسبة إلى أحوال الدنيا، مؤكّداً كلامه بالحجَّة والبرهان، فإنَّ أعظم شرٍّ يتصوَّره الإنسان بالسّماع عنه، ويستهوله ويستنكره من مجرّد السماع فقط، فإذا وقع في مثل تلك الأحوال وشاهدها، واضطرّ إلى المواجهة كانَ من السهل عليه ما كان يستصعبه منها، وهانَ في عينه ذلك الخوف.

وأمّا أحوال الآخرة في مقابل أحوال الدنيا، فالذي يسمعه من شرورها وخيراتها إنّما يلحظه ويدركه مقارنةً مع خيرات الدنيا وشرورها، فلذلك كان عيان أحوالها أعظم من سماعها.

وإذا كان الحال كذلك، فينبغي أن يكتفى من العيان بالسماع، ومن الغيب بالخبر، إذ لا يمكن للإنسان الاطّلاع على الغيب ومشاهدة العيان لتلك الأحوال في هذا العالم، منبِّهاً على أفضليَّة الآخرة بأنَّ ما زاد فيها ممّا يقرب المؤمن إلى الله تعالى، فإن استلزم نقصان الدنيا من بذل مالٍ أو جاه خيرٌ من العكس، وذلك في قوله: "وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ"،

---

٢ صالح، ١٧٠.

٣ العطّار، قيس بهجت. نهج البلاغة، ط١ (إيران: مؤسسة الرافد للطباعة، ٢٠١٠)، ٢٢٦.

فالربح الحقيقيّ هو ربح الآخرة، والخسارة الحقيقية هي ربح الدنيا وتفضيل هذا الربح على ربح الآخرة، مؤكِّداً عليه السلام على ذلك بالبرهان، وهو أنَّ خيرات الدنيا في معرض الزوال، ويستلزم حدوثها التعب والأوجاع.

٢- الدنيا دار رزق ويقين من الله:

يقول عليه السلام: "**مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ**"[٤] [٥]:

يقصد عليه السلام من هذه الحكمة الواردة في الخطبة الشريفة الحديث عن العُمر والرزق في الحياة الدنيا، ما كُسبَ منه وما فات، فالله سبحانه يرزق عباده من حيث لا يحتسب، لكن عليهم السعي، فما فات من الرزق اليوم لا يعوّض، كما العمر ما يفوت منه لا سبيل لتعويضه. وفي ذلك حكمة لكيفيَّة التعامل مع الرزق في الدنيا، والسعي في سبيله، وعدم إضاعة الوقت في سبيل تحصيله، لأنَّ ما يفوت في هذه الدنيا لا يعوّض.

٣- وصفُ مذامّ الدنيا:

يقول الإمام عليّ عليه السلام: "**ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لَا تُخْطِئُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ، يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ، آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ**"، ويقول عليه السلام: "**فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ**"[٦] [٧].

ويذكر الإمام عليّ عليه السلام في المقطع السابق من الخطبة الشريفة مذامّ الدنيا إجمالاً، وهو كونها دار فناءٍ وعناءٍ، وغِيَرٍ وعِبَرٍ، ثُمَّ أعقب ذلك الإجماع بتفصيل كلّ جملة، وذلك إلى قوله: "ولا مُؤَمَّل يُترَك"، مُستعيراً لفظ الإيتار لإيتار الدهر "مُوترٌ قوسَه"، قاصداً أنَّ الدهر يرمي الإنسان بمصائبه المستندة إلى القضاء الإلهيّ المكتوب والمفروض على الإنسان، كما يرمي الرامي الذي لا يخطئ، مستعيراً لفظ الجراح لنوائب الدهر لاشتراكهما في الإيلام ورشح بذكر عدم المداواة.

---

٤ صالح، نهج البلاغة، ١٧١.
٥ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٧.
٦ صالح، نهج البلاغة، ١٧٠.
٧ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.

ويقول ﵇ في ذمِّ الدنيا أيضاً: **"وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً"** [٨] [٩]:

أراد الإمام عليّ ﵇ بلفظ "بالمرحوم" الإنسان الذي يرى مغبوطاً من أهل المسكنة والفقر، ممّن يتبدَّل فقرهم بالغنى فيغبطون، ويقصد "بالمغبوط" الذي يرى مرحوماً من أهل الغنى المتبدّلين به فقراً وفقَ تصاريف الدهر فيصيرون في محلّ الرحمة.

وفي ذلك توجيه وحكمة مفادها تقلّب أحوال الدنيا وتبدّلها على الإنسان بغتة، ووجوب الاعتبار من ذلك.

٤- وصف غرور الدّنيا:

يقول ﵇: **"فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّهَا وَأَضْحَى فَيْئَهَا"** [١٠] [١١]:

في هذا القول يصف الإمام عليّ ﵇ غرور الحياة الدنيا، فقد نسب الغرور إلى سرورها، والظمأ إلى ريِّها، والضحى إلى فيئها، وأتى بلفظ التعجّب، وكنّى بريّها عن استتمامٍ لذاتها، وبفيئها عن الركون والاعتماد عليها.

ووجّه هذه النسب أنَّ سرورها وفيئها هي الأمور التي صرفت الإنسان عن العمل لأجل الآخرة، والملفتات عن الإقبال على الله، فكان سرورها أقوى سبب للغرور بها، ورِيُّها وفيئُها أقوى الأسباب لظمأ الإنسان المنهمك فيها، والأوجب لحرّ الجحيم، فلهذه النسبة جازت إضافة الغرور والظمأ والضحى إلى سرورها وريّها وفيئها.

ثانياً- الدراسة الدلاليّة في الخطبة (١١٤) المدروسة:

التكثيف الدلاليّ في الخطبة الشريفة وانعكاساته الجماليَّة:

التكثيف اصطلاحاً مصطلح مهمٌّ عُنيَ به كثير من النقّاد والباحثين، ووعوا أهمِّيَّته في النصوص الأدبيَّة، لما له من مقدرة كبيرة على الغوص عميقاً في كنه اللُّغة، والإبحار بعيداً في أعماق الدلالات والمعاني اللُّغوية القادرة على حمل دلالاتٍ متعدِّدة ومتنوِّعة للمفردة الواحدة، صالحة للتغيُّر والانسياق مع قاصد مبدعيها.

---

٨ صالح، نهج البلاغة، ١٧٠.
٩ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.
١٠ صالح، نهج البلاغة، ١٧٠.
١١ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٦.

وانطلاقاً من أهمِّيَّة (التكثيف) انطلق النقّاد والمختصُّون بتعريفه وتوضيحه، يقول الدكتور "سعيد علوش" في تعريفه اصطلاحاً: "هو إمكانيَّة لغة ما في تكثيف بعض التركيبات..، في معانٍ معادلة باستعمال تورية أو غيرها"[١٢].

وعرّفه آخر بقوله: هو "وسيلة لإذابة العناصر والمكوّنات المتناقضة والمتباينة والمتشابهة وجعلها في بؤرة واحدة تلمع كالبرق الخاطف"[١٣].

كما أوضحه البعض الآخر بشكلٍ أعمق، حين ربطه بالمجاز، المجاز الذي لا يقف حدَّ كونه مجرَّد اقتصادٍ لفظيّ فحسب، بل مقدرته على منح أيِّ نصّ الحيويَّة والحركة والقدرة الكبيرة والهائلة على التعبير، الأمر الذي تعجز المفردات البسيطة العاديَّة عن منحه، كقول أحدهم: "فالتكثيف -هو أهمّ أسرار المجاز- ليس اختصاراً فحسب، بل إنَّه اختصار في سبيل العمق والإطناب -إن صحّ التعبير- وحرِّيَّة التصوّر"[١٤].

من هنا تأتي أهمِّيَّة تناول البحث موضوع الدلالة وتكثيفها في خطب الإمام عليّ ﵇، انطلاقاً من أهمِّيَّة الخطب نفسها، ودور التكثيف الدلاليّ وأهمِّيَّة دراسته دراسة لغويَّةً تليق بكتابٍ ككتاب نهج البلاغة الصادر عن ربيب أمين وحي القرآن، هذا النهج بخطبه المتجدِّدة دائماً وغير الثابتة ولا الجامدة، والتي لاتقف عند مصطلحاتٍ معجميَّة بعينها، ومعانٍ بعينها غير متجدِّدة، بل هيَ خطَبٌ متطوِّرة ومستمرَّة عبر الزمان، بدلالاتها الكثيفة العميقة التي تماشي كلَّ الأزمنة وتقلّبها في الأمم والإنسان، لا يليق بها تناول اللُّغة التي بنيت بها وعليها بشكلٍ اعتياديّ، هذه اللُّغة غير الاعتياديَّة التي يعود الفضل بها إلى براعة مبدع هذه النصوص لغويًّا، ومقدرته اللُّغويَّة العظيمة على إبداع ألفاظٍ صالحة لكلِّ وقت، وشحنها وتحميلها بطاقاتٍ دلاليَّة كثيفة وعميقة تسافر عبر الزمن، وتدخل لأفهام القرّاء على اختلاف مستوياتهم الإدراكيَّة والمعرفيَّة.

---

١٢ علوش، سعيد معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط١ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨)، ٣٠٤.

١٣ الحسين، أحمد جاسم. القصة القصيرة جداً (مقاربة تحليلية)، د.ط (دمشق – سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٠)، ٥٢.

١٤ عبدالله، محمد حسن. الصورة والبناء الشعري، د.ط. (القاهرة – مصر: دار المعارف، د.ت.)، ١٢٨.

وقلّما جاءت الدراسات التي درست نهج خطب الإمام عليّ عليه السلام في كتابه نهج البلاغة متناولةً قضيَّة التكثيف الدلاليّ، فانطلق هذا البحث في هذه القضية اللُّغويَّة، انطلاقاً من أهمِّيَّة هذه الخطب الشريفة في طرحها لقضايا الدنيا والإنسان طرحاً عميقاً يرقى بمعانٍ ودلالاتٍ هي أوسع وأشمل بكثير ممّا جاءت الألفاظ عليه في المعاجم اللُّغويَّة، فآثر هذا البحث النظر في التكثيف الدلاليّ في الخطبة (١١٤)، لما جاءت به وعليه من بلاغةٍ وتكثيفٍ للمعنى المتناول وهو الدنيا، ولعلاقة الإنسان بها، تكثيفاً يقتضي التعمُّق والتوغّل في عظيم حكمة الإمام عليّ عليه السلام، وما أرادَ توجيه للإنسان والإنسانيَّة جمعاء من خلالها.

والمشترك اللَّفظي كما جاء تعريفه على لسان واضع النحو "سيبويه"، وقد جاء الأوضح من بين التعريفات فيه: المشترك اللَّفظيّ هو "اتِّفاق اللَّفظين والمعنى مختلف، كقولك: وجدتُ عليهِ منَ المَوجِدة، ووجَدت إذا أردت وجدان الضالّة"[١٥]، كما حدّدهُ أهلُ الأصول اللُّغويَّة بقولهم فيه: هو "اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللُّغة"[١٦].

وقد عمد البحث إلى تتبّع المظاهر التي نلحظ فيها تكثيفاً دلاليًّا أكثر من سواها والواردة في الخطبة الشريفة المدروسة، وأبرزها الجناس الذي ورد في الخطية (١١٤) المدروسة، والذي لم يجئ تكثيفاً كمّيًّا، وإنّما جاء معنويًّا ودلاليًّا:

- التكثيف الدلاليّ باستعمال المشترك اللَّفظيّ (الجناس الاشتقاقي):

والجناس من المحسّنات اللَّفظيَّة التي تصنّف ضمن أبواب المعاني، و"الجناس والتجنيس والمجانسة ألفاظ مشتقّة من الجنس، وتعني انضمام الشيء إلى ما شاكله وشابهه"[١٧].

والجناس اصطلاحاً هو "أن يتشابه اللَّفظان في النطق ويختلفا في المعنى"[١٨]، وقد قال فيه كبار اللُّغويّين والبلاغيّين من أمثال "ابن الأثير": الجِناس "أن يكون اللَّفظ واحداً والمعنى مختلفاً، وذلك يعني أنّه هو اللَّفظ المشترك"[١٩]، وقد أكّد على الجناس كمشتركٍ لفظيّ مهمّ بقوله: "إنَّ مقصود واضع اللُّغة البيان والتجنيس، والبيان يحصل بالألفاظ المتباينة الكافية في

---

١٥ سيبويه، الكتاب، تحقيق. عبد السلام محمد هارون، ط٣ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٨)، ج١/ ٢٤.
١٦ السيوطي، جلال الدين. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق. فؤاد علي عصفور، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ج١/ ٢٩٢.
١٧ ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق. هادي شاكر شاكر، ط١ (النجف الأشرف: مطبعة النعمان، ١٩٦٨)، ١٦.
١٨ الميداني، البلاغة العربية، ط١ (دمشق: دار القلم، ١٩٩٦)، ج٢/ ٤٨٥.
١٩ عتيق، عبد العزيز. علم البديع، د.ط. (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.)، ١٩٦.

الإفهام، وأمَّا التجنيس فإنَّهُ عُمدة الفصاحة والبلاغة، ولا يقوم به إلَّا الأسماء المُشتركة"[٢٠].

ومن أروع ما جاءَ في الجناس وتوظيفه في الخطبة الشريفة قوله ﵇: "**فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ، مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ، الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي**"[٢١ ٢٢]، ففي قوله ﵇ وردت الألفاظ (يُرجَى، رُجِيَ، لم يُرجَ، الرّجاء) مشتقّة من جذرٍ لغويٍّ واحد، وهو (رَجَيَ)، وقد تمّ استعمال الجذر في الخطبة الشريفة وتوظيفه توظيفاً متعدّد الاستعمالات وبصياغاتٍ متعدِّدة، ودلالاتٍ أثرت معناه في السياق، وهنا تتجلّى وظيفة الجناس الاشتقاقيّ اللُّغويَّة والبلاغيَّة في إحداثِ عظيمِ الأثر في النصِّ والمتلقّي، ويجعله يتفكّر في عِظم اللُّغة العربيَّة من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى في عِظم براعة الإمام ومقدرتهِ اللُّغويَّة الحكميَّة، وهذا ما يعزّز الكلام الذي يبيّن أثر الجناس في النصّ، وهو أنَّ "الجناس دعامة قويَّة تؤكِّد المعنى الذي يريد أن يثبته"[٢٣]، وهذا ما قصد إليه الإمام علّي ﵇ في كلامه عن الدنيا وأحوال الأمور وتداولها فيها، وعظيم حكمته حين وظّف الجناس، لِيعظ الناس في أنَّ رزقَ الإنسان وعُمرَهُ المنقضي مثله مثل الدنيا التي وُجدَ فيها، ما يذهب منها لن يعود، ولا رجاءَ وأَمَل به، فالرجاء كلّه في القادم منها واستثماره خيرَ استثمار، وعدم الوقوف على ما فات من الأرزاقِ والأعمار.

-التكثيف الدلاليّ في السّجع:

وقد ورد السجع في معاجم اللُّغة كالآتي: "سجعت الحمامة إذا ردّدت صوتَها على وجهٍ واحد، وكذلك سجعت الناقة في حنينها..، وفلان ساجع في سيره: مُستقيم لا يميل عن القصد"[٢٤].

أمّا السجع في الاصطلاح فمن تعريفاته وتوضيحه أنَّه "تواطؤ الفواصل في النثر والشعر على حرفٍ واحد، والأصل فيه الاعتدال في مقاطع الكلام"[٢٥].

---

٢٠ ابن أبي الحديد، عز الدين. الفلك الدائر على المثل السائر، تحقيق. أحمد الحوفي، د.ط. (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت.)، ج٤/ ٢٧.
٢١ صالح، نهج البلاغة، ١٧١.
٢٢ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٧.
٢٣ علي، محمد محمد يونس. المعنى وظلال المعنى (أنظمة الدلالة في العربية)، ط٢ (ليبيا: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧)، ٢٢٠.
٢٤ الزمخشري، أساس البلاغة، د.ط. (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩).
٢٥ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق. أحمد الحوفي ؛ بدوي طبانة، ط١ (مصر: دار نهضة مصر، ١٩٦٠)، ١٩٤.

نلحظ في الخطبة الشريفة تكثيفاً كمِّيًّا ودلاليًّا وبلاغيًّا للسجع، إذ ورد في مواضع عدّة منها، وممّا وردَ فيها منه قوله ﵇: **"فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لَا تُخْطِئُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ"**[٢٦] [٢٧]؛ نلحظ في القول السابق انقسامه على ثلاثة مقاطع وفواصل سجعيَّة، هي (قوسُ، سِهامهُ، جراحهُ)، وقد قامت الفقرات الثلاث على اختلافٍ في التوازن الذي يقوم عليه السجع، رغم تساوي كلمات تلك الفقرات، ما عدا الفقرة الأولى، وعلى اختلاف صوت حرف السجع بينها، فالأولى جاء صوت الحرف الأخير المسجوع فيها (الميم المضمومة+ه)، والثانية جاء صوت حرف السجع فيها (الميم المضمومة+ه)، والثالثة جاء صوت حرف السجع فيها (الحاء المضمومة+ه)، ولكنَّنا نلحظ أنَّه على الرغم من عدم تناسق عدد الكلمات في الفقرات المسجوعة، ورغم اختلاف صوت حرف السجع، إلَّا أنَّ المعنى جاء متناغماً متساوقاً مع ما أراد الإمام قوله، لذا أضاف للفِقرات المسجوعة في نهايتها الضمير المتَّصل (الهاء). وعلى الرغم من أنَّ هذا الضمير لا يحتوي تنويعاً في إحالته، إلَّا أنَّهُ يعود في إحالته إلى أمرٍ وغرضٍ واحد فقط يشير إليه رغم اختلاف فواصل السجع الحقيقية، وهذا الأمر الواحد هو الدّهر والدنيا التي يحيا فيها الإنسان، وهنا تكمن براعة السجع في الخطبة الشريفة في المقدرة اللُّغويَّة البلاغيَّة على القول في السجع المختلف من حيث تركيب فقراته، إلَّا أنَّه يعود للأمر نفسه المراد الحديث عنه، وهو الدنيا التي يحيا بها الإنسان، فهي دنيا فانية لا تكاد تسعد الإنسان في شيء إلَّا وقد صوَّبت نحوه سهام الموت، فالقدر قد شدَّ سهامه التي لا تخطئ على قوسه، بمعنى أنَّ الموت لا يخطئ الناس في هذه الدنيا الفانية.

كما يقول في الخطبة نفسها عن الدنيا وأحوال الدهر فيها: **"آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ"**[٢٨] [٢٩]، في هذا السجع الذي وصف فيه الإمام ﵇ فيه الدهر وأحواله في هذه الدنيا أنَّه لا يشبع ولا يكتفي من الإنسان، لا يرحمه، ولا يكتفي بتعذيبه وامتحانه، وهو في ذلك يشبِّهه بالكائن النَّهِم، وكأنَّه لا يشبع ممَّا يأكله من مصائب الناس، وفي قوله (وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ)

---

٢٦ صالح، نهج البلاغة، ١٦٩.
٢٧ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٤.
٢٨ صالح، نهج البلاغة، ١٧٠.
٢٩ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.

تشبيهٌ له بالكائن ذاته الذي لا يرتوي من العطش بالماء الذي يشربه، بل لا يرويه إلَّا آلام البشر. وخير ما يوظِّفه الإمام في وصف آلام الناس ومعاناتهم في الدنيا هو توظيفهُ فاصلة السّجع الساكنة الموحّدة، وهو حرف (العين الساكن)، لِما في السكون من استكانة وثبات على حالٍ وهيئةٍ واحدة وتقريرٍ للمعنى، وفي ذلك الإشارة إلى دوام مصائب الناس في الدنيا.

ولعلّ السجع بما يمتلكه من مقدرةٍ على التأثير الصوتيِّ الأقدر في معرض هذا الكلام على الربط المعنويِّ الجماليِّ البلاغيِّ بين أطراف الخطاب، وما يستطيع تحقيقه من روابط تشدُّ أذن المتلقّي وانتباهه، بفضل التوازن البديع بين نهايات كلماته، وفي ذلك يقول الإمام عليه السلام أيضاً في خطبته عن الدنيا: "**فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ**"[٣٠،٣١]، وقد بني هذا السجع على فاصلتين، هما (العمَل، الأجَل)، وقد اعتمد فيه حرف اللام الساكن، حيث نلحظ فيه شدَّة الانتظام في الإيقاع السجعيِّ، وتشابه حرف السجع وموقع النبر في التركيبين، محافظاً على عناصر الشكل المهمَّة، وهي الإيقاع والوزن، على الرغم من الاختلاف في المعنى، لكنَّ المعنيين يصبّان في معنى أشمل وأعمّ يجمع بينهما، وهو السعي إلى العمل، وعدم تأجيله في الدنيا المباغتة للإنسان في أيِّ لحظة. وبذلك تجلّت حكمة الإمام عليّ عليه السلام في هذا السّجع، والتي مفادها ضرورة الاعتبار من الدنيا وسرعة انقضاء أجل الإنسان فيها، ولذا فهو التوجيه بعدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد، لأنَّها دنيا بلا أمان، فلا ينبغي للإنسان المؤمن تأجيل العمل الصالح وما ألزمه الله به من الفرائض والواجبات، فإنَّ الأجل يأتي بغتة، وفي ذلك حكمة مأخوذة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (الأنبياء ٤٠).

ثانياً- المستوى البيانيّ في الخطبة المدروسة:

الصور البيانيَّة في قول علم اللُّغة والأدب هي "شكل ملموس في الكلمات والعبارات"[٣٢]، وهذا الشكل "يتضمّن خيالاً ينشأ نتيجة عاطفة قويَّة، ويعكسه الأديب في عمله"[٣٣].

---

٣٠ صالح، نهج البلاغة، ١٧٠.
٣١ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.
٣٢ مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، د.ط. (بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٣)، ٣.
٣٣ الخفاجي، عبد المنعم محمد. دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه، د.ط (القاهرة: دار المطبعة المحمدية، د.ت.)، ٤٦.

وقد رأى كبار العلماء اللُّغويّين والأدباء القدامى أمثال الجاحظ: أنَّ المبدع الحقيقيّ هو من يستطيع أن يخرج لنا من المعاني منتجاً مبتكراً معتمداً في ذلك على أدواته من صحّة الطّبع، وجودة السّبك، وروعة التّصوير. وهذه الفكرة تمثّلت في مقولته الشّهيرة: المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجميّ، والعربيّ، والبدويّ، والقرويّ، وإنَّما الشّأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللّفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحَّة الطّبع، وجودة السّبك فإنَّما الشّعر صناعة وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير"[٣٤].

أمّا المحدَثون فقد أدركوا أهمِّيَّة الصورة في الدرس البلاغيّ العربيّ الحديث اقتداءً واحتذاءً بالقدامى أهل الفصاحة والبلاغة والأدب، يقول "كمال أبو ديب" الذي شغلت باله أهمِّيَّة العلاقة بين السّياق الجزئيّ، أو الكلِّيّ للصّورة، وربطه بالحالة النّفسيَّة للشّاعر الّذي نادى بالوعي "بأبعاد التّجربة الّتي تخلق القصيدة، وتبنّى هذا الأساس في تحليله لبعض الصّور"[٣٥].

أمَّا "عليّ زيتون" فقد رأى أنَّها "الوسيلة الفنِّيَّة الأساسيَّة في نقل التّجربة الشّعوريَّة"[٣٦].

أ- التشبيه:

التّشبيه لغة:

جاءَ في لسان العرب: "الشِّبه، الشَّبه، الشَّبيه: المثلُ والجمع أشباه، وأشبه الشّيءُ الشّيءَ: ماثَله والتّشبيه: التّمثيل. وفي المثل: "من شابه أباه فما ظلم"[٣٧].

التّشبيه اصطلاحاً:

هو "علاقة مقارنة تجمع بين الطّرفين لاتِّحادهما، أو اشتراكهما في صفة، أو حالة، أو مجموعة من الصّفات والأحوال، هذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسِّيَّة، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم، أو المقتضى الذّهنيّ الّذي يربط الطّرفين المقارنين، من دون أن يكون من الضّروريّ أن يشترك الطّرفان في الهيأة المادِّيَّة، أو في كثير من الصّفات المحسوسة"[٣٨].

---

٣٤ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان، تحقيق. عبد السّلام هارون، ط٦ (بيروت: دار الكتاب العربيّ، ١٩٦٩)، ١٣١_ ١٣٢.
٣٥ صالح، بشرى موسى. الصّورة الشّعريّة في النّقد العربيّ الحديث، ط١ (بيروت: المركز الثّقافي العربيّ، ١٩٩٤)، ٦٤.
٣٦ زيتون، عليّ. الشّعر كتاب الثّقافة، ط١ (بيروت: دار العودة، ٢٠١٣)، ٣٩١.
٣٧ ابن منظور، لسان العرب، ط٣ (بيروت – لبنان: دار صادر، ١٩٩٤)، ٥٠٣.
٣٨ عصفور، قيس بهجت. الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب، ط٣ (بيروت: المركز الثّقافي العربيّ، ١٩٩٢)، ١٧٢.

وقد اهتمَّ علماء البلاغة بالتّشبيه لكونه بحراً من بحار لغتنا الحبيبة، ولنا أن نأخذَ بقول المُبّرّد فيه: "والتّشبيه جارٍ في كثيرٍ من الكلام، أعني كلام العرب، حتّى لو قال قائل: إنَّه أكثر كلامهم لم يُبعد"[٣٩].

وقد أولى القدماء، وأوَّلهم "الجرجانيّ" التّشبيه عنايةً كُبرى من بينِ الصور البيانيَّة الأخرى، "ولعلَّ توغّله هذا في دراسة التّشبيه عائد إلى أنَّه يريد اكتناه سرَّ البلاغة الّذي جعل من القرآن نصًّا متفوّقًا على سائر النّصوص الأدبيَّة"[٤٠].

واستناداً إلى الخطبة المعنيَّة بالدراسة تمَّ إحصاء الصور البلاغيَّة للدنيا، وأوَّلها التشبيه، وتمَّ تصنيفها وفق الآتي:

ورد التشبيه في قول الامام علي ﷺ: "**إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ**"[٤١ ٤٢]، فهو يشبّه الدنيا بالدار الفانية الزائلة غير الباقية ولا الدائمة، وهي في ذلك أيضًا دار عناء وتعب، يسودها التعب والمشقّة والجهد المُضني، كما يشبّهها بالعِبرة، وأنَّها دار واسعة لتعليم الإنسان الحكمة والعِبرة من كلِّ ما يحصل له فيها من أمور ومواقف، فهيَ بإيجابياتها وسلبياتها دارُ عِبرةٍ وتعليم، فهيَ كالمدرسة تعطي الدروس باهظة الثمن، وهي في ذلك لا ترحم، ولا تعطي دروساً دون أثمان، لذا في التشبيه بلاغة وحكمة عظيمة تدعو الإنسان للتعامل معها من غير بساطةٍ ولا سذاجة، فهي ميدانٌ واسع وشامل لتعليمه كلَّ ما من شأنه أن يجعله مُعتبراً منها ومن تفاصيلها، مهما بلغت هذه التفاصيل من قلَّةٍ أو كثرة.

الدنيا دار عدم كفاية:

وممَّا تضمّنته الخطبة (١١٤) من كتاب نهج البلاغة قوله في التشبيه: "**أنَّ الدّهر.. آكِلٌ لَا يَشْبَعُ وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ**"[٤٣ ٤٤]، فنلحظ اختيار الإمام علّي ﷺ هذه الصورة التشبيهيَّة بعناية للتعبير عن طبيعة الدنيا، فهي واسعة ومن شأنها أن تبتلع معها كلَّ شيء، لا تقف عند حدٍّ

٣٩ المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد. الكامل في اللّغة والأدب، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣ (دار الفكر العربيّ، د.ت.)، ج٢/ ٩٢.
٤٠ زيتون، عليّ. الإعجاز القرآنيّ وآليّة التّفكير النّقديّ عند العرب، ط١١ (بيروت: دار الفارابيّ، ٢٠١٢)، ٢٠٣.
٤١ صالح، نهج البلاغة، ١٧٠.
٤٢ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.
٤٣ صالح، نهج البلاغة، ١٧٠.
٤٤ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.

معيّن من الأخذ والنهب، فشبّهها الإمام عليه السلام بالآكل النَّهِم الذي لا يكتفي بكميَّةٍ معيَّنة من الطعام، ولا من الشراب، فهي طالبٌ في ازدياد. وانطلاقاً من هذه الحقيقة آثر الإمام عليّ عليه السلام تحذير الإنسان منها، فهو لا يمكن له أن يكون في مأمنٍ منها مهما فعل، ومهما كان حريصاً، لذا يحذّرهُ من التعلُّق بها بشكلٍ مُبالغٍ به، لأنَّها لن تتردَّدَ في ابتلاعه، كما أنّ تعلّقهُ بها يجعه مثلها، لا يشبع من شيء، فهو بطبيعتهِ الفطريَّة يحبّ المزيد ويطلبه، فالخوف من هذه الاستزادة الفطريَّة من شأنه التحذير من أن يتمَّ معها القضاء عليه وابتلاعه من قبل الدنيا.

من هنا تتَّضح الحكمة من بلاغة الإمام عليّ عليه السلام في هذه الصورة في حرصه على الإنسان وكلِّ ما يعنيه بتنبيههِ من هذه الدنيا وتحذيرهِ منها على الدوام.

ب- الاستعارة:

الاستعارة لغة:

في اللُّغة الاستعارة مأخوذة من العارية؛ أي نقل الشّيء من شخص إلى آخر، حتَّى تصبح تلك العارية من خصائص المُعار إليه: "والعارية منسوبة إلى العارة، وهو اسم من الإعارة. تقول أعرته الشّيء أعيره إعارة وعارة. ويقال استعرت منه عاريّة فأعارنيها"[٤٥].

وقد جاء في مختار الصّحاح مادّة (ع و ر): "واستعارَه ثوباً فأعاره إيَّاه. واعتوروا الشّيء تداولوه فيما بينهم، وكذا (تعوّروه تعوّرًا) و(تعاوروه)"[٤٦].

٢ – الاستعارة اصطلاحاً:

عرّفها "الجاحظ" مولياً إيَّاها عنايةً كبيرة بقوله: الاستعارة هي "تسمية الشّيء باسم غيره إذا قام مقامه"[٤٧]، والجدير بالذّكر أنّ "الجاحظ" لم يخصَّها بعلم البيان أو البديع، لأنَّ التّخصيص العلميّ لم يكن قد وجد في عصره. ونشير هنا إلى أنَّ ابن قتيبة زاد على تعريف الجاحظ ذكر العلاقة بين المعنين بالإشارة إلى علاقتي السّببيَّة أو المشابهة، وقال المُبرَّد عنها بأنَّها: "نقل اللَّفظ من معنى إلى معنى"[٤٨].

---

٤٥ ابن منظور، لسان العرب، ٦١٩.
٤٦ الرازي، أحمد بن فارس. مقاييس اللّغة، تحقيق. عبد السلام محمد هارون، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩هـ).
٤٧ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين، تحقيق. عبد السّلام هارون (مصر: مكتبة الخانجي، د.ت.)، ج١/ ١٣٩.
٤٨ شيخون، محمود السّيّد. الاستعارة نشأتها وتطوّرها، ط٢ (مصر: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤)، ٧.

وعرّفها الرُّمانيُّ بقوله: "الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللُّغة على جهة النّقل للإبانة"[٤٩].

وكان قد اهتمَّ بالتفريق بين (الاستعارة) و(التّشبيه)، كما أنَّه رأى في الاستعارة بنيةً متكاملة، "فإظهار الدّلالة وإبانتها، وحسن إفهام المعاني هو الهمّ الأساس بين هموم الرّمانيّ، حتّى لكأنَّ الوضوح هو خاصّة البلاغة الأولى"[٥٠].

ولا ريبَ في أنَّ نهج البلاغة بما يضمُّ بين دفّتيه من خطبٍ وكلمات يعدّ بعد القرآن الكريم خير مصدر يستند إليه علماء البلاغة في تعزيز شواهدهم البلاغيَّة؛ فهو يشتمل كأحسن ما يكون الاشتمال على الكثير من الصناعات البلاغيَّة والبيانيَّة والبديعيَّة التي استقرأها علماء البلاغة في القرآن الكريم الذي يعدّ الآية الكبرى في البلاغة وفي كلام العرب عموماً شعراً ونثراً.

يقول عليه السلام: **"أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ لَا تُخْطِئُ سِهَامُهُ وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ"**[٥١]:

يشبّه الإمام عليّ عليه السلام في الصورة الاستعاريَّة السابقة الواردة في الخطبة (١١٤) الدنيا بالرامي الماهر الظالم الذي يرمي بسهامه ونباله أبناءَه، من خلال توظيف الاستعارة في قوله (الحيّ بالموت)، و(الصّحيح بالسّقم)، و(النّاجي بالعطب)، وقد اختار الإمام عليّ عليه السلام هذه الصور البلاغيَّة المؤلمة ليبيِّن للإنسان خطورة الدنيا في مواجهته، وليوصل له حكمة مفاده أنَّ الدنيا خطيرة وغير راحمة، وأنَّ الإنسان سيكون في مواجهتها، وسيجد نفسه هدفاً لها حين يرتكب أيَّةَ أخطاء أو مخالفات دنيويَّة، فهي بمنزلة الخصم والندّ له المنتظر لهفواته وزلّاته وأخطائه، فهي لا ترحم ولا تغفر، ولا تعرف رحمةً ولا سماحاً، لذا وجب الحرص انطلاقاً من صفاتها عدم الخوض في الأمر المجهولة غير محسوبة العواقب فيها، وتجنّب خداعها، والسير في مساراتها التي تخدع الإنسان وتخذله بزينتها وشكلها المخالف لمضمونها، وفي ذلك صورة بلاغيَّة ثرَّة تجاوزت الشكل اللَّفظيّ للكلمة، وحملت معانٍ عميقة تأخذ المتلقّي للحذر المطلق، لا لمجرَّد الحذر.

٤٩ الرّمانيّ، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق. محمود خلف الله أحمد و محمود زغلول سلام، د.ط (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥)، ١٨.
٥٠ زيتون، الإعجاز القرآنيّ وآليّة التّفكير النّقديّ عند العرب، ١٧١.
٥١ صالح، نهج البلاغة ;١٧٠ العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.

ثالثاً- المستوى البديعيّ:

حين نتحدّث عن العكس والتبديل، وهو موضوع بلاغيّ بديع غاية في الأهمِّيَّة، فإنَّ أوَّل ما يتبادر إلى الذهن موضوع التقديم والتأخير في الجملة العربيَّة، وما له من أهمِّيَّةٍ وأثر في النصوص على المستويات المعنويَّة والإيقاعيَّة والدلاليَّة، وذلك من خلال مقدرة مبدعه على ابتداع نصّ مرِن مطواع ينبئ عن مقدرة اللُّغة العربيَّة على البوح بمعانٍ متعدِّدة منبثقة من المعنى الواحد والجذر الواحد في كثيرٍ من المواضع، وهو ما يسعى البحث إليه في الخطبة المدروسة من الغوص في عمق أسلوبيَّة الخطاب الإماميّ، وما لهذهِ الظاهرة النحويَّة من مقدرةٍ على الكشف عن بلاغة النصّ، وعن المظاهر البديعيَّة المتجسِّدة في التراكيب النحويَّة على مستوى الخطاب الشريف.

والعكس والتبديل يعدّ من الظواهر النحويَّة المهمَّة على مستوى النصّ المدروس، وقد تحدَّث في أهمِّيَّته كثير من النحويّين العرب القدامى قبل المحدَثين، من أمثال "العسكريّ" الذي قال في أهمِّيَّته: "العكس أن تعكس الكلام، فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأوَّل، وبعضهم يسمّيه التبديل"[٥٢].

ويعرِّفه "ابن سنان الخفّاجيّ": هوَ "أن يُقدَّم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً، ويُتلى بآخر يُجعل فيه ما كانَ مقدَّماً في الأوَّل مؤخَّراً في الثاني، وما كانَ مقدَّماً مؤخَّراً"[٥٣].

وأسماه "ابن منقذ" بظاهرة العكس، وهوَ "أن تأتي الجملتان إحداهما عكس الأخرى"[٥٤].

أمّا "ابن الأثير" فقد أسماه "المعكوس"، متحدِّثاً بأهمِّيَّته على مستوى النصّ الأدبيّ جماليًّا وبلاغيًّا بقوله: "وهذا الضرب من التجنيس لهُ حلاوة وعليه رونق، وقد سمّاه قدامة بن جعفر الكاتب (التبديل)، وذلك اسمٌ مناسب لمسمّاه، لأنَّ مؤلِّف الكلام يأتي بما كانَ مقدَّماً في جزء كلامه الأوَّل مؤخَّراً في الثاني، وربَّما مؤخَّراً في الأوَّل مُقدَّماً في الثاني"[٥٥].

---

٥٢ العسكري، أبو هلال .الصناعتين في الكتابة والشعر، تحقيق. علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٢)، ٣٨٥.

٥٣ الخفاجي، ابن سنان سرّ الفصاحة، تحقيق. عبد المتعال الصعيدي، د.ط. (مصر: مطبعة محمد علي صبيح، ١٩٥٣)، ٢٣٩.

٥٤ ابن منقذ، أسامة البديع في نقد الشعر، تحقيق. أحمد بدوي و حامد عبد المجيد، د.ط (مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.)، ٤٨.

٥٥ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الأديب والشاعر، تحقيق. محمد محي الدين عبد الحميد، د.ط. (مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٩)، ج١/ ٢٦١.

والعكس أو التبديل ذو طبيعة تكراريَّة، فضلاً عن طبيعته التقابليَّة، وانطلاقاً من أهمِّيَّته في ذلك استطاع أن يفرض أهمِّيَّته في البديع التداوليّ، فماهيَّته تحتاج ذكاءً وفطنةً من المتلقّي لفهم حكمة ما جاء به.

وقد ورد أسلوب العكس والتبديل في الخطبة الشريفة المعنيَّة بالدراسة بشكلٍ فاق وروده في الخُطَب الأخرى، متنوعاً بين:

- التبديل والعكس بين الأفعال.
- التبديل والعكس بين الأسماء.

التبديل والعكس بين الأفعال:

ورد ها النوع في قوله عليه السلام: "**فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ**"[٥٦]: أراد الإمام علّي عليه السلام أن يوظِّف الحكمة، بتوجيهه إيَّاها إلى الإنسان في الدنيا وحقيقة الأمور المُحصّلة فيها، فجاء في القول السابق معنيان متعاكسان، المعنى الأوَّل يقوم على طرفين؛ الطرف الأوَّل (ذروا ما قلَّ)، والثاني (لِما كَثُر)، والمعنى الثاني تجلّى في قوله: (وما ضاقَ لِما اتّسع)، متشكّلًا من الطرفين المتعاكسين: (ما ضاقَ) و(لِما اتّسع)، وفي هذا العكس حكمة كبيرة من وعظ للإنسان بترك الدنيا الفانية التي رمز بها بقوله (ما قلَّ) و(ما ضاق) والعمل من أجل الآخرة التي هي خير وأبقى وأشمل وأوسع وأخلد من الدنا الفانية، رامزاً لها بقوله (ما كثُر) و(ما اتَّسع).

التبديل والعكس بين الأسماء:

ومن ذلك قوله عليه السلام في الدنيا: "**وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً**"[٥٧]:

يقابل الإمام عليّ عليه السلام بين اسمين، هما (المرحوم، المَغبوط)، في معنيين متعاكسين، وقد أرادَ من خلال ذلك أن يُظهر حال الإنسان في الدنيا الفانية، هذه الدنيا التي لا راحة فيها ولا هناء لمخلوق، فالطرف الأوَّل (المرحومَ مَغبوطاً) يقصد به أنَّ الإنسانَ الذي يموت ويفنى يراه الناس في صورةٍ خياليَّة، وكأنَّه أهنأ وضعاً ممَّن لا يزالون على قيد الحياة. والعكس صحيح، متحدِّثًا عن هذا العكس من خلال الطرف الثاني الذي يقول فيه (المَغبوطَ مَرحوماً)، ويقصد

٥٦ صالح، نهج البلاغة ;١٧١، العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٦.
٥٧ صالح، نهج البلاغة ; ١٧٠، العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.

به ومن خلاله أنَّ الإنسان الذي لا يزال على قيد هذه الدنيا يستحقّ الرحمة وهو على قيد الحياة، لشدّة ما يعانيهِ فيها.

كما أورد الإمام عليّ ﷺ تراكيب عدّة تجلّى أسلوب العكس فيها، من مثل قوله: **"وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا"**[٥٨]:

في هذا التبديل تركيبان؛ الأوّل (مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ) والثاني (ما نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا)، وقد وظّف الإمام عليّ ﷺ العكس والتبديل في الحكم القصيرة التي أراد توجيهها للإنسان عن الدنيا، وقد أراد أن يقول: أيُّها الإنسان، اعلم أنَّه كلّما نقص من دنياك وأضيف إلى آخرتك، فهو خير من أن ينقص ثواب آخرتك ويضاف إلى دنياك، لذا عمد إلى هذا التقابل البليغ ليظهر العكس بين المعنيين، ويترك الخيار للإنسان كي يتفكّر فيها ويختار المناسب له بحكمة ودراية بالدنيا، لا بجهلٍ بها.

ومنه قوله ﷺ: **"وَكُلُّ شَيءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ"**[٥٩]:

لقد ورد التبديل في قوله ﷺ بين تركيبين؛ تركيب الدنيا وتعاكُسِها مع الآخرة، فجاءَ الطرف الأوّل: (**وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ**)، مُتعاكِساً مع الطرف الثاني (**وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ**). ويقصد ﷺ من ذلك يعني أنّ كلَّ شيءٍ من أمور الدنيا المُرغِّبة والمُرهِّبة سماعُه أعظَمُ من عِيانه، والآخرة بالعكس. أمَّا القضية الأولى فقضيَّة ظاهرة، فقد نسمع عن أمورٍ كثيرة في الحياة، نستعظمها وتكبر في أعيننا، لكنّنا حين نعاينها نجد أنَّها أقلُّ أهمِّيَّةً وحجماً ممَّا سمعنا عنه بكثير، فيحرص الإنسان على الأمر الدنيويّ بسبب طبيعته الفضوليَّة.

وأمَّا الطرف الثاني المُقابل في قوله ﷺ والمتعاكس مع الطرف الأوَّل فيطرح فيه أحوال الآخرة، فالأمر فيها بالضدِّ من ذلك، لأنَّ الذي يتصوَّره الناس من الجنَّة أنَّها دار متاع وملذّات للإنسان، لكنَّ أمرَها في الحقيقة أعظَمُ وأشرَف من كلِّ ما قد يتصوَّره الإنسان عنها، فمَتاعُها وملاذُّها

---

٥٨ صالح، نهج البلاغة ; ١٧٠، العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٦.
٥٩ صالح، نهج البلاغة ; ١٧٠،العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٥.

الروحانيَّة المقارِنة لهذه الملاذِّ المضادَّة لها أعظَمُ من هذه الملاذِّ بدرجات كبيرة وعظيمة. وقد بلغت البلاغة درجة عظيمة ومكانة عالية حين عمد الإمام عليه السلام إلى المقارنة بين الدنيا والآخرة، ليبيِّن للإنسان أنَّ هذه الدنيا التي يحيا بها الإنسان ليست إلَّا متاع الغرور، وبهذا آتى العكس والتبديل أُكلهُ ومقاصدهُ الدلاليَّة من خلال بلاغته عليه السلام في القول المذكور.

كما جاءَ في كلام الإمام التنبيه إلى سرعة انقضاء الدنيا وحلول الموت، فكلام أمير المؤمنين عليه السلام مشحون بتذكير سرعة انقضاء الدنيا وحلول المنيَّة، يقول عليه السلام: **فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ**"[٦٠]: يعمد من خلال هذا التعاكس الحاصل في التركيب والمكون من طرفين، الأوَّل (**مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ**) والثاني (**وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ**) لأن يحدّث الإنسان عن حقيقة الدنيا وسرعة انقضائها، فلا يعلم الإنسان متى تحين ساعته ويصبح في عداد الأموات، وفي ذلك حكمة كبيرة وعميقة لتنبيه الإنسان حول أهمِّيَّة الاعتبار والعبرة، ما يدفعه للشعور بكلِّ ما هو واجب فعله، وإصلاح كلِّ ما تمَّ إفساده، ووجوب العامل مع الدنيا وأوقاتها وكأنَّ كلَّ لحظة في حياة المرء هي اللَّحظة الأخيرة.

وقوله عليه السلام: **مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ**"[٦١]: يقوم التركيب السابق على طرفين قائمين على مبدأ العكس والتبديل، وقد أراد الإمام عليّ عليه السلام من خلالِ هذا المبدأ والمبلغ النحويّ أن يوصل للإنسان حقيقةً دنيويَّة عن الرّزق مفادها أنَّ العبد حينما يتوجَّه إلى الله ربِّه وخالقه يسأله من أبواب رزقه وفضله التي أمر بها، فإنَّ الله ينعم عليه بخير الدنيا والآخرة بما هو أعرف به منه، فقد يقلّ رزق اليوم ويعوِّض الله عليه بالعوض الحسن، لأنَّ كلَّ شيءٍ في الدنيا قابل للزيادة والعوض بأمرٍ من الله سبحانه، لكنَّ ما فات من الرزق في هذه الدنيا فهو راحل كرحيل لدنيا لا يعود، فلا خيرَ يُرتجى من رزقٍ رحَل، فالخير في الآتي الممكن، لا في الزائل منه، كلٌّ بأمرٍ من الله ربِّ العالمين، فليعتبر الإنسان منكم ولا يندم على شيءٍ تذب به الدنيا ويصبح ماضياً.

---

٦٠ صالح، نهج البلاغة، ١٧١، العطّار؛ نهج البلاغة، ٢٢٧.
٦١ صالح، نهج البلاغة؛ ١٧١، العطّار، نهج البلاغة، ٢٢٧.

نتائج البحث وتوصياته:

من خلال تناول صورة الدنيا في الخطبة المدروسة من كتاب "نهج البلاغة" تبدّت لنا حكمة الإمام عليّ عليه السلام في حديثه عن الدنيا، وتناوله الدهر والأيَّام، فكان كلُّ ذلك يدور حول ماهيَّة الدنيا، والنظرة الإسلاميَّة لها وللإنسان وأحواله فيها، متوصّلين إلى استكناه بلاغة الإمام وفصاحته العالية في الخطبة المدروسة، ومقدرته البلاغيَّة عظيمة الأثر في نفوس المتلقّين، فقد كان الأعلم بمواضع البلاغ والتأثير، قاصداً من كلِّ ذلك أن يؤمَّ الناس ويوجّههم إلى طاعة الله، وسبيل حسن التصرّف في الدنيا لنيل رضى الله في الآخرة التي هي خير وأبقى، من خلالِ مقارنته أحوال الدنيا والآخرة، فتجلّت حكمته في الخطبة من خلال التكثيف الدلاليّ والبلاغيّ الناظم للخطبة، فجاءت كما باقي خطبه بديعة الحبك والصناعة، وخيرَ مشكاةٍ للناس على مرّ الزمان وتبدّل أحواله، صالحة لكلِّ زمانٍ ومكان.

المصادر:

القرآن الكريم

ابن أبي الحديد، عز الدين. الفلك الدائر على المثل السائر. تحقيق أحمد الحوفي. د.ط. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت.

ابن الأثير. المثل السائر في أدب الأديب والشاعر. تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. د.ط. مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٩.

ابن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق أحمد الحوفي و بدوي طبانة. ط١. مصر: دار نهضة مصر، ١٩٦٠.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق عبد السّلام هارون. مصر: مكتبة الخانجي، د.ت.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان. تحقيق عبد السّلام هارون. ط٦. بيروت: دار الكتاب العربيّ، ١٩٦٩.

الحسين، أحمد جاسم. القصة القصيرة جداً (مقاربة تحليلية). د.ط. دمشق - سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٠.

الخفاجي، ابن سنان. سرّ الفصاحة. صحّحه وعلّق عليه عبد المتعال الصعيدي. د.ط. مصر: مطبعة محمد علي صبيح، ١٩٥٣.

الخفاجي، عبد المنعم محمد. دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه. د.ط. القاهرة: دار المطبعة المحمدية، د.ت.

الرازي، أحمد بن فارس. مقاييس اللّغة. تحقيق عبد السلام محمد هارون. ط١. دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩.

الرّمانيّ. النكت في إعجاز القرآن. تحقيق محمود خلف الله أحمد و محمود زعلول سلام. د.ط. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥.

الزمخشري. أساس البلاغة. د.ط. بيروت: دار صادر، ١٩٧٩.

السيوطي، جلال الدين. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق فؤاد علي عصفور. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

العسكري، أبو هلال. الصناعتين في الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم. ط١. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٢.

العطّار، قيس بهجت. نهج البلاغة. ط١. إيران: مؤسسة الرافد للطباعة، ٢٠١٠.

المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد. الكامل في اللّغة والأدب. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٣. دار الفكر العربيّ، د.ت.

الميداني. البلاغة العربية. ط١. دمشق: دار القلم، ١٩٩٦.

زيتون، عليّ. الإعجاز القرآنيّ وآليّة التّفكير النّقديّ عند العرب. ط١١. بيروت: دار الفارابيّ، ٢٠١٢.

زيتون، عليّ. الشّعر كتاب الثّقافة. ط١. بيروت: دار العودة، ٢٠١٣.

سيبويه. الكتاب. تحقيق عبد السلام محمد هارون. ط٣. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٨.

شيخون، محمود السّيّد. الاستعارة نشأتها وتطوّرها. ط٢. مصر: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤.

صالح، بشرى موسى. الصّورة الشّعريّة في النّقد العربيّ الحديث. ط١. بيروت: المركز الثّقافي العربيّ، ١٩٩٤.

صالح، صبحي. نهج البلاغة. ط٤. القاهرة؛ بيروت: دار الكتاب المصري ؛ دار الكتاب اللبناني، ٢٠٠٤.

عبدالله، محمد حسن. الصورة والبناء الشعري. د.ط. القاهرة – مصر: دار المعارف، د.ت.

عتيق، عبد العزيز. علم البديع. د.ط. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.

عصفور، قيس بهجت. الصّورة الفنيّة في الترّاث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب. ط٣. بيروت: المركز الثّقافي العربيّ، ١٩٩٢.

علوش، سعيد. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. ط١. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨.

علي، محمد محمد يونس. المعنى وظلال المعنى (أنظمة الدلالة في العربية). ط٢. ليبيا: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧.

معصوم، ابن. أنوار الربيع في أنواع البديع. تحقيق هادي شاكر شاكر. ط١. النجف الأشرف: مطبعة النعمان، ١٩٦٨.

منظور، ابن. لسان العرب. ط٣. بيروت – لبنان: دار صادر، ١٩٩٤.

منقذ، أسامة. البديع في نقد الشعر. تحقيق أحمد بدوي و حامد عبد المجيد. د.ط. مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.

ناصف، مصطفى. الصورة الأدبية. د.ط. بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٣.